جدل الضحية/الجلاّد في الخطاب الروائي العراقي

" فرانكشتاين في بغداد" لـ: أحمد السّعداوي أنموذجا

The Controversy of the Victim/Executioner in the Iraqi Novelist Discourse. “Frankenstein in Baghdad” of Ahmed Asadaoui as a Case Study

شريط بدرة

جامعة وهران 2 محمد بن أحمد (الجزائر)

basma.cheriet@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2022/4/26	تاريخ القبول: 2022/5/11	تاريخ النشر: 2022/06/30

Abstract

We can understand through the novel "Frankenstein in Baghdad," to the Iraqi writer Ahmed Al-Saadawi: death and violence are very clear in the narrative text. It reveals the reality of Iraq and its sectarianism crisis and its division (civil war), its isolation, the people suffering and the Iraqi division after the American occupation. Where the novel begins by a miraculous personal (Frankenstein); which is created by the circumstances of cultural and sectarian diversity, it's the other, savior of humanity that carry and bear dead bodies, feeds of them to arise and to be strong enough to maintain in life, trying to revenge to the deads. Suddenly, this miraculous person turns into a torturer / monster seeking to realize Justice and revenge for the victims of the explosions; to stand out the image of torn Iraq, painful, and crumbling under the insecurity on the one hand and self-splitting on the other hand.

Based on this narrative work, our study focuses on the psychological approach, monitoring theories and psychological studies of the most important researchers and psychologists like(s. freud , which is based on human self-dissection. Where our reading relies on tracking the constituent aspects of literary text, the most notably is the Subconscious issues, repression and many psychological subjects.

Keywords :death ; Violence ; Victim ; Torturer ; revenge.

الملخص

يتجلى الموت والعنف في رواية "فرانكشتاين في بغداد" للكاتب العراقي أحمد السعداوي بشكل واضح. إذ يكشف النص واقع العراق وأزمته الطائفية وانقسامه(الحرب الأهلية)، وانعزاله ومعاناة شعبه وتشتّته بعد الاحتلال الأمريكي. تنطلق الرواية من شخصية عجائبية (فرانكشتاين أو الشّسمه)؛ خلقتها الظروف بتنوّعها الثقافي والطائفي، إنّها الآخر المنقذ للإنسانية والتي تحاول الانتقام ورد الاعتبار للموتى، ساعية إلى تحقيق العدالة بالثأر لضحايا الانفجارات؛ ومبرزة بذلك صورة العراق الممزّق والمتهالك في ظلّ اللاأمن من جهة وانشطار الذات واغترابها من جهة أخرى.

تنكبّ دراستنا على المقاربة النفسية، برصد النظريات والدراسات النفسية لأهم الباحثين النفسيين أمثال سيغموند فرويد؛ كما ترتكز على تشريح الذات الإنسانية. حيث تعتمد قراءتنا على تتبع الجوانب المكوّنة للنص الأدبي أبرزها قضايا اللاشعور والغرائز والكبت وموضوعات نفسية عديدة.. وهذا ما سوف نلمسه في الشخصية العجائبية "فرانكشتاين/الشسمه" التي تعيش صراعات داخلية جرّاء الموت المفزع.

كلمات مفتاحية: العنف؛ الموت؛ الضحية؛ الجلاد؛ الثأر.

1.مقدمة:

تتمحور دراستنا لرواية "**فرانكشاتين في بغداد** " حول شخصية (**الشّسمه/فرانكشتاين**) نظرا لما تعانيه من ارتباك واضطراب، نتيجة التراكمات النفسية والصراعات الداخلية والخارجية. إنّها الواحد المتشظي المتلوّن بألوان الحياة ومرارتها في العراق الجريحة. هذا الكم الهائل من الأصوات(أشلاء الضحايا) العراقية بتنوّعها الطائفي والتي تجمعت على جسده المكلوم تدفعه إلى الثأر والانتقام، فيتولّد لديه حب للعدوانية، ورغبة في حب البقاء والإشباع الغريزي. لنلمح من خلالها غريزة التدمير والتمرد على النظام الفاسد والخونة بالعراق من جهة، ولتتحوّل بعدها إلى إزهاق للأرواح بصورة عبثية من

جهة أخرى. ومن هذا المنطلق تولدت إشكالية البحث والمتمثلة في الدور الذي تلعبة الشخصية العجائبية (الشسمه) وصورة الألم والأمل في رواية فرانكشتاين في بغداد. هي إشكالية تنبثق منها عدة تساؤلات: واقع الجريمة من خلال دور الضحية /الجلاد في الشسمه؟ وكيف أسهم الوضع السياسي الذي عاشته العراق في تكريس الضغينة أوساط المجتمع؟ و ما مدى تأثيره وانعكاسه على الشخصية العراقية؟ وكيف تعيش شخصية الشسمه بين واقع الضحية من جهة والجلاد من جهة أخرى ؟

وللإجابة عن الإشكالية المطروحة ،اتبعنا في بحثنا المنهج النفسي في تحليل الشخصية من الجانب الداخلي (النفسي) والخارجي(التأثيرات السياسية والنزاعات الطائفية وغيرها..)أمّا فيما يخص مسار دراستنا، فقد أعتمدنا على محاور أساسية تمثّلت في:

المدخل النظري عن المنهج النفسي.

دلالة اسم الشسمه لغة واصطلاحا.

دلالة اسم(فرانكشتاين).

دراسة نفسية لفرانكشتاين الضحية/الجلاد.

2.المدخل النظري:

في البدء من المستحسن تحديد الإطار النظري الذي ستتحرك على ضوئه المقاربة، إذ ستكون أطروحة العالم النفسي سيغموند فرويد(s. freud) هي مرجعنا النظري، إذ سنفعّل آليات هذه الأطروحة في قراءتنا الإجرائية، وذلك نظرا للتعالقات القصدية بين الأدب والتحليل النفسي بشكل عام؛ فكلاهما يسلّط الضوء على الإنسان وحياته ومكنوناته "باستنطاق ذاتية الإنسان في علاقاته المعقدة بالمجتمع والتاريخ والآخرين."[1] .لقد عرف

العالم النفساني سيغموند فرويد s. freud) بتميّزه في اطلاق النظريات التي تربط العقل باللاوعي، وكذلك عن آليات الدفاع عن القمع.

لقد حظيت الأعمال الروائية والفنون الإبداعية بصفة عامة باهتمام بالغ من جانب المحللين النفسانيين، ويرجع ذلك إلى الأبحاث المتميزة لسيغموند فرويد(s. freud) وانكبابه على دراسة الذات المبدعة (الأديب المبدع) وتركيزه على مختلف السلوكيات والتصرفات وبالأخص الشعور واللاشعور. ويأتي تركيز التحليل النفسي على الفنون الإبداعية والخروج عن حدود مهنتهم الى أبعد من ذلك وقراءة الظاهر والباطن للمبدع وسبر أغوار النص الأدبي بغية "الكشف عن العلل التي تتخلّل كل تخيّل وترغمه على إصدار صور تتلاق فيها شبكة العلاقات الواعية واللاواعية، والتي تعطي للصنيع بعده الإنساني المتفرد".[2] ويتبدى ذلك وفق تحليلاته لشخصية الرسام "ليوناردو دافنشي" وكذا شخصية الكاتب الروسي"دوستويفسكي" ليركز بذلك على الجوانب النفسية كاشفا أسرارها، موضحا بعض الظواهر التي تتميز بها كل شخصية .

2-1المنهج النفسي:

يتيح لنا المنهج النفسي الوقوف على اللاّشعور؛ الذي من خلاله نتفحص جوانب الشخصية الأدبية، ونكتشف نقاط قوّتها وضعفها، والمستوى النفسي المهيمن عليها. وعلى هذا الأساس ترتكز الدراسة التحليلية النفسانية على" وجوب التفسير الدينامي للنشاط النفسي ككّل" أي التركيز على سلوك الإنسان؛ الذي يشكل الموضوع الأساسي لعلم النفس في مجموع الاستجابات اللفظية والحركية بوجه خاص التي يبيّنها الفرد في وضعية معيّنة. فعلم النفس "جهاز مفاهيمي يعيد تشكيل العمق النفسي، ويشيّد لفك الشفرة." ،باعتبار الذات الإنسانية نشاطا نفسيا مركبا، ومعقدا يخضع لمؤثرات متعدّدة.

ينطلق سيغموند فرويد **s. freud** في تحليله للنفس البشرية من ثلاث قوى أساسية : وهي: الهو والأنا والأنا الأعلى. فالهو: يتضمن الغرائز والاستعدادات الوراثية، نشاطه مبدأ اللذة وتجنب الألم ولا يراعي المنطق والأخلاق والواقع. أما الأنا: "فقسم انسلخ من الهو نتيجة الاحتكاك بالعالم الخارجي ويقوم منه مقام القشرة من الشجرة تحميها وتصونها من الخطر، وهو يكبح من جماح الهو على أساس نفعي ويساعده أحيانا على إشباع رغباته في الخفاء" . أمّا الأنا الأعلى: فهو يمثل الممنوعات والقيّم المثلى، الذي يعتبر السلطة الداخلية ومراقب الأنا، إذ "أنّ تكوينها في البناء الشخصي يعني أنّ سلوك الفرد قد تأثر بإمكانية العقاب الذاتي(تأنيب الضمير)." ومراقبة الذات و تنمية الإحساس بالمسؤولية في أي سلوك أو عمل يقوم به.

يرى سيغموند فرويد **s. freud** أنّ هذه القوى "تعمل في مستويات ثلاثة، الشعور واللاشعور وما تحت الشعور"، إلاّ أنّه اتخذ موضوع اللاّشعور المنطلق الرئيسي لدراسة النفس، باعتباره" المنطقة الأوسع التي تضمّ بين جوانبها منطقة الشعور الأضيق نطاقا، وأنّ اللاّشعور هو الواقع النفسي الحقيقي وإذا كان في طبيعته الباطنة مجهول منا." إلاّ أنّه يكشف أثناء المعالجة على بعض الاضطرابات النفسية المكبوتة داخل النفس البشرية.

2.2 التحليل النفسي لرواية فرانكشتاين:

دلالة اسم الشسمه:

لا يختلف الاسم وما يحتمله من دلالات وإيحاءات عن أي عنصر من عناصر السرد كالشخصية والمكان والزمن والحدث؛ فهو الذي يحدّد وظيفتها وحركتها، كما يعطيها تميزا يتباين بين مجموعة هائلة من الشخصيات في العمل الإبداعي.

كلّ اسم من أسماء الشخصيات يحمل في صياغته العديد من المعاني والدلالات؛ لتوحي بذلك إلى الهويّة والانتماء، باعتبارها (أي الاسم) وحدة دالّة تؤدي وظيفتها على مستوى المتن السردي من خلال تفاعل الشخصية مع الحدث والمكان ،فهو كـ" إشارة مضيئة تكشف عن المخبوء داخل أعماق تلك الشخصيات والأمكنة والأحداث."[3]

نجد الروائي السعداوي متحمسا بتسمية شخصياته وإعطائهم سمات وصفية، فالشسمه اسم أحد الشخصيات المحورية في الرواية ولغة معناه الشخصية المجردة من الاسم أي لا اسم لها.

الشمسه دلاليا: إنّ لهذه الشخصية حضورا متميّزا على مدار امتداد مسار الرواية ؛ فهو هذا الكم الهائل والخليط من أجساد كل البغداديين الخيرين والأشرار منهم، بتنوّع دياناتهم وتعدّد طائفيتهم، المسالمين والإرهابيين، فيعزم " الشسمه " إلى الانتقام لروح الضحايا الذين يشكلون جسده، وكأنّ هذا المسخ هو مخلص العراقيين من خونة الوطن والاحتلال الأمريكي الذين أفسدوا حياتهم وأزالوا معنى الاستقرار والأمن لهذه الأرض الطيبة. " الشسمه " أو " فرانكشتاين " هو الوحش الذي سيقضي على الوحشية في بغداد .

3-2 معنى فرانكشتاين في الثقافة العامّة:

فرانكشتاين هو شخصية خيالية قدمتها وكتبت عنها الروائية ماري شيلي عام 1818 في إنجلترا، وهو في الرواية عبارة عن مسخ يشبه الإنسان لكنه خال من المشاعر والأحاسيس، لا يحمل اسماً، لكن يأخذ اسمه من الرجل الذي يصنعه والذي يدعى فرانكشتاين. فهو ذلك الطالب الذي نجح في صناعة المخلوق المسخ بمساعدة الكيمياء وبعض العلوم الأخرى، ليفقد بعد ذلك السيطرة عليه ومن هنا تبدأ رحلة فرانكشتاين باحثا عمن يأويه ويفهمه ليقتل العديد من الأشخاص، فيقرر في النهاية الانتحار حرقاً كقرار شخصي.

2-4فرانكشتاين في الرواية: يأخذ بعدا آخر في العمل السردي، فيشحنه الكاتب العراقي السعداوي بالأحاسيس والعواطف، ليتحوّل من ضحيّة إلى جلاد، و من منقذ للشّعب العراقي على تنوّع طائفيّتهم إلى شخصية مجنونة لحب القتل.

3- دراسة نفسية لفرانكشتاين في رواية فرانكشتاين في بغداد:

بناء على هذه المعطيات النظرية، نتوخى الوقوف على البنية الدلالية للنص الروائي المنتقى للدراسة بغرض تفكيك علاماته ضمن إطار التحليل النفسي انطلاقا من تتبّع مسار الشخصية الفاعلة المتمثّلة في (الشّسمه/فرانكشتاين) والدخول إلى أعماقها واستكناه اللاشعور الكامن فيها.

يكشف **الشّسمه/**فرانكشتاين في رواية "فرانكشتاين في بغداد" عن الخطاب الرمزي، إذ يحمل رؤى متعددة على مستويات عدة: نفسية، فلسفية وإنسانية وسياسية ودينية. و عند وقوفنا على البنية الدلالية لهذا الخطاب الروائي، تبيّن لنا الحضور اللافت للعلامات المتضادة -التي تتجاذب الشخصية المحورية- ممثلة في الضحية/الجلاد، المخلّص/المجرم، المواطن العراقي البريء/السفّاح؛ مؤشرة على صورة العراق بعد الخراب. هذه الصورة الممزقة نسجت فنيّا بشكل أضفى على النص السردي نزعة عجائبية وتخييلية من الوقائع المأساوية التي شهدتها ولا تزال تعيشها العراق إلى يومنا.

إنّ القارئ لنص فرانكشتاين في بغداد، سيلمح العديد من الأحداث-الوضع المأساوي في العراق جرّاء الانفجارات المتكرّرة –وخليط من الشخصيات التي ساهمت في خلق هذه الشخصية العجائبية والغرائبية وتصديقها، ومن بينهم "هادي العتاك" بائع الأغراض المستعملة (الأنتيكا). إذ يستمتع بحكي قصة مختلقة على مسامع الصحافي "محمود السوادي" و زبائن مقهى "عزيز المصري" عن الانفجار -الذي خلّف العديد من الضحايا الأبرياء "ارتطم في الطريق بأجساد الهاربين من الانفجار وغزا أنفه الدخان من

بعيد، دخان الانفجار واحتراق بلاستيك و"كشنات" السيارات وشواء الأجساد. رائحة لن تشم مثلها في حياتك. وتبقى تتذكرها ما حييت."[4].

نسج الروائي عدّة مشاهد دموية عن التفجيرات بشكل يوحي للقارئ بالاستهانة الكبيرة بآدمية الإنسان العربي وعدم مراعاة إنسانيته، هي حال العراق الجريح بعد الاحتلال الأمريكي .

يقول السارد :"كان هناك جرحى يئنون والكثير من الأجساد النائمة أو المتحاضنة والمكوّمة."[5] يحمل هذا الملفوظ السردي أبعادا كثيرة دالّة على الرعب والعنف واللاأمن، لتحقّق الرواية من خلال استعراضها لمثل هذه المشاهد تيمة الموت والتمرّد؛ وعلى المستوى الواقعي يعدّ ذلك مؤشرا على خطورة الوضع السياسي والإنساني في بلاد الرافدين مهد الحضارة العربية الإسلامية، لذلك حرص الروائي السعداوي على نقل صورة العراق الراهنة، وذلك باستثمار ظاهرة غريبة خارقة وهي إعادة خلق شخصية من أشلاء موتى الانفجار.

تبدأ الرواية بسرد تفاصيل أحداث الانفجار - وما ترتّب عنه من ضغط نفسي وخوف وكبت وانتهاك إنساني-على لسان ساردها "هادي العتاك"؛ الذي يحكي قصة خيالية في مقهى "عزيز المصري" عن جمعه لبقايا الضحايا المهملة ومنحها حياة أخرى، فتتحوّل إلى وحش ثائر، صارخ ومخيف "أخرج هادي أنفا طازجا مازال الدم القاني المتجلد عالقا به، ثمّ بيد مرتجفة وضعه في الثغرة السوداء داخل وجه الجثة، فبدا وكأنّه في مكانه تماما، كأنّه أنف هذه الجثة وقد عاد إليها".[6]

يواصل هادي العتّاك سرد قصته الخارقة عن الجثة، وفي هذه المرة يخبر الجميع عن اختفائها فجأة، و على الرغم من أنه بحث عنها في أماكن عديدة وفي البيوت المجاورة.، لكنه لم يعثر عليها. و يبدو أن روح "حسيب محمد جعفر" التائهة سكنت فيها، بعد موته في

عملية انتحارية، ومن هنا تدّب الحياة داخله، ليدخل عالم الأحياء مدافعا عن هذه الجثث المقهورة التي قتلت ظلما.

ولعلّ الهاجس الخفيّ الذي جعل هادي العتّاك يولّي الاهتمام بجمع أشلاء الموتى وإعادة إحيائهم من جديد، هو شعوره بالقهر والأسى جرّاء الوضع الإجرامي والأمني والسياسي والإنساني الكارثي، لذا منح هؤلاء فرصة جديدة للحياة ليثأروا لأنفسهم. كما أنّ موت صديقه المقرّب في أحد الانفجارات وحزنه عليه هو الدّافع الأكبر لصناعة الشّسمه.

يستمر هادي العتاك في البحث عن الجثة على الرغم من آلام مفاصله وتصدّع رأسه، مدركا تماما أنّ لا أحد يصدق كذبته حول ترقيع وخياطة أشلاء قتلى التفجيرات. فحين تنتقل تلك الجثة/أو الشسمه(لا اسم له) إلى بيت السيدة إليشوا الآشورية ؛التي فقدت ابنها دانيال في حرب إيران، لكنها لم تفقد الأمل في رجوعه مرة ثانية، تستقبله هذه المرأة دون أن تسأل عن غيابه؟ لقد قدّمت له ملابسا من صندوق ابنها وطلبت منه ارتداءها ." أشعلت العجوز بندائها هذه التركيبة العجيبة التي تكوّنت من الجثة المجمّعة من بقايا جثث متفرّقة وروح حارس الفندق التي ضاع جسدها. أخرجته من المجهول بالاسم الذي منحته له :دانيال."[7]

يقوم الشّسمه/فرانكشتاين بتفحّص جسده وتحسّس غرز الخياطة الظاهرة عليه، ومع صباح الغد تقصّ عليه السيدة إليشوا(أم دانيال) مأساتها ومعاناتها، وعمّا فعله بها أبو زيدون، والذي كان سببا في وحدتها وتعاستها بأخذ ابنها الوحيد إلى الخدمة العسكرية والمشاركة في الواجب الوطني في الحرب على إيران.

إن الشّسمه في رواتنا شخصية محورية وديناميكية يدخل إلى عالم الانتقام والإجرام، كونه محاصر بالضغوطات نتيجة لما يعيشه من صراعات داخلية وخارجية، لقد أضحت ذاته مثقلة بهموم الضحايا وأنينهم ووجعهم. فهم مجرد بقايا جثث دون روح.

فالشسمه أملهم الوحيد لإظهار صوت الحق وتطبيق العدالة بالثأر والانتقام من العدو ومساندة تلك الروح التي قتلت غدرا. وهي بدورها قوى خيّرة تحرّكه وتحدّد اتجاهه نحو العدو المطلوب.

تسيطر هذه الروح الثائرة على سلوكات الشّسمه فتسلك مسلك التخويف والقتل والتعنيف؛ فهي صوت المقهورين، والمظلومين الذين يموتون بالمئات يوميا بلا أي ذنب؛ وتبعا لذلك يرسم لنا الروائي السعدواي وجهين متناقضين لشخصية الشّسمه **الضحية والجلاد**؛ فهو من جهة ضحية حرب ظالمة، يبحث عن العدالة، كما، يعد من ضحايا تعتيم السلطة والاستهانة ببقايا الجثث، وكذا الصراع الطائفي الذي أنهك الذات وشتّتها. ومن جهة ثانية يمثّل جلاّدا طغت عليه النزعة الإجرامية والرغبة في التقتيل والتدمير.

إنّ المتتبع لأحداث الحكاية، يكتشف أنّ بداية الأزمة في الرواية كانت مع موت الشحاذين الأربعة بطريقة غامضة، حين أمسك كلّ واحد منهم بعنق الآخر، و قد تزايد عدد شهود العيان لهذه الحادثة؛ ممّا أقلق الجيش الأمريكي وطالب من الشرطة العراقية التحرّي عن الجريمة. "ارتدى رجال من الشرطة قفازات مطاطية بيضاء و بدأوا بفك الأيادي القابضة على الأعناق. حملوا الجثث إلى السيارة الحوضية بسرعة، ثم غادروا جميعا."[8]

يظهر شاهد من شهود العيان في هذه القضية ألا وهو المتسوّل العجوز (الشحاذ)، إذ نافذة بيته كانت تطل على موقع الجريمة. ووقت الحادثة، كان يحتسي شرابه المفضل عرق العصرية، فجأة سمع صراخا وتأوّهات ،ظنّه عراك سكارى. وبعد معاودة المراقبة، تمكّن من رؤية خمسة أشباح مرعبين، وهكذا تتوالى قصص الجرائم، ويشرع الشّسمه في الاقتصاص من القتلة دون تردّد. "لقد قتل أبو زيدون انتقاما لدانيال

تيداروس، وقتل ذلك الضابط لأنّه تسبب بمقتل ضحية. أخذ هادي بعض أصابعها وركبّها لجسد الشسمه وهو مستمر في عمله هذا حتى النهاية."[9]

يعترف الشّسمه بعد لقائه بالهتّاك بأفعاله الانتقامية، مفسّرا دوافع الإقدام على ارتكاب الجرائم، ومصرا على إنهاء مشروعه المتمثّل في القصاص للضحايا. فهو لا يقتل بصورة عشوائية، ولا يسعى إلى تخويف شعب العراق، ويتضح ذلك من خلال قول السارد: "لا يبحث عن الاستعراض والنجومية وإبراز القوة. هو لا يقصد أيضا إخافتهم ؛إنّه في مهمة نبيلة، ومن الضروري أن ينجز هذه المهمة بأقل ممكن من المعرقلات."[10]"

انطلاقا من البوح و الاعترافات، يتبيّن لنا أنّ الشّسمه هو الحارس الأمين وصوت الضمير، لينسجم مع الشعور بقوّة، ملتزما بقراره ومندفعا نحو تحقيق العدالة بيده، التي غاب صيتها في الأرض، إنّه مخلوق سوّي وأكثر إنسانية من الآخرين "لا يملك بتاتا سيكولوجية المجرم."[11]، ولا يشكو من اضطرابات عصابية أو ذهنية. إلاّ أنّه يخترق القانون ويخالفه؛ ويرجع ذلك للظروف السياسية السيّئة والنزاع الطائفي، والكارثة الإنسانية، ورائحة الموت التي قادت الشعب إلى الهجرة واللجوء والتشتّت. هذه التراكمات كانت عاملا أساسيا في الشّحن النفسي فأدّت بذلك إلى فقد الشّسمه سيطرته وجعلته يسلك طريقا غير طبيعي في مواجهته للقتلة.

لقد ذاع صيت الشّسمه وتضاعف عدد القتلة في بغداد، فلجأت السلطة ومكتب الاستخبارات(دائرة المتابعة والتعقيب)بقيادة العميد "سرور مجيد" إلى تكثيف المراقبة في كلّ الشوارع للقبض على المجرم المدعو فرانكشتاين، بالإضافة إلى ذلك الاستعانة بمجموعة من المنجمين لتتبع خطوات المجرم ومعرفة اسمه ومكان تواجده باستخدام طرق الشعوذة والأسحار واستحضار قوى خفية.

وعلى هذا الأساس يطلب الصحافي محمود السوادي من الهتّاك تسجيل صوت الشّسمه وما يدور بينهما من كلام، مستغلا إيّاه لصفقته الإعلامية، وبالفعل يستجيب الهتّاك لطلبه، ونجده ينقل تفاصيل تحاورهما وإصراره قتل المجرمين الذين أجرموا بحقه، وقراره الأخير بعد إنهاء مهامه بالتحلل والموت، ولا ننسى أنّ هادي العتاك كان ضمن هذه اللائحة قائلا: "اجعلني في الأخير. أنا لا أريد حياتي أصلا. ما حياتي؟.. أنا لا شيء. أموت أو أحيا.. أنا لا شيء أقتلني."[12].

يدرك الهتاك أنّ جسد الشّسمه القوّي ليس قويا كما يبدو، ولكنه معرض للهلاك والتحلّل، وسيتلاشى بصورة مستمرة بعد كلّ عملية انتقامية يقوم بها. فهو باستمرار بحاجة إلى أشلاء أخرى ترممّه ويتغذى منها ليستمر لأجل مشروعه. وهكذا يكشف السارد الجانب الإنساني لدى الشّسمه وثورته ضد من أجرموا في حق الشعب العراقي، ليوحي إلى نزاهته والتزامه بقراراته.

وعليه، يسجّل الشّسمه كلّ الحقائق والاعترافات على مسجلّة الديجتال، محاولا إظهار صورته الحقيقية للشعب العراقي، ومنبها إياهم، في قوله "سأقتص، بعون الله والسماء، من كلّ المجرمين، سأنجز العدالة على الأرض أخيرا."[13]وفي مشهد سردي آخر يقول: "ليس لدي وقت كثير، ربما أنتهي ويذوب جسدي وأنا أسير ليلا في الأزقة والشوارع حتّى من دون أن أنهي مهمّتي التي كلّفت بها. أنا مثل هذه المسجلة التي أعطاها ذلك الصحفي المجهول لوالدي العتاك المسكين.."[14]

رغم رغبة البطل في الاعتراف مازلنا نرى تصميمه لتنفيذ مشروع القصاص، ومن جانب آخر نلمس تأزمه الداخلي مما يقال عنه: "لقد حولوني إلى مجرم وسفّاح، وشابهوني بهذا الوصف مع الذين أسعى للقصاص منهم أصلا. وهذا ظلم كبير، بل إنّ الواجب الأخلاقي

والإنساني يدعو إلى نصرتي والوقوف في صفي، لإحقاق العدالة في هذا العالم المخرب تماما بالأطماع وجنون السلطة وشهوة القتل."[15]

بدا هذا المشهد السردي ينبض باللغة الصارخة غير المتوترة، مفعما بخطاب التحدّي والإرادة، فهو يحمل علامات عديدة تدل على القوّة والاندفاع، ليمرّر من خلاله رسالة الهويّة ويكشف الحقائق إلى المواطن العراقي لنصرته وجذب انتباهه ومساندته في تحقيق العدالة؛ ويشير هذا إلى إيجابية هذه الشخصية ، إذ تسعى جاهدة لتبرئة نفسها وكسب عدد من الأصوات إلى صفها.

ثم يتابع ذلك ليوجّه نداءه إلى من يصغون إلى اعترافاته عبر مسجلة الديجتال، يقول: "وأطلب أن تدعوا لي وتعقدوا الأماني في قلوبكم على انتصاري وإكمالي لمهمتي قبل فوات الوقت وضياع كلّ شيء من يديّ.."[16]

يلقى هذا التسجيل إقبالا وآذانا صاغية، فينشر الصحافي محمود السوادي تلك الحقائق في مجلته ضمن مقال أسماه فرانكشتاين، لتأخذ مسارا آخرا. تتّهمه إدارة الاستخبارات بالتواطؤ مع أحدهم وتعرّضه للتحقيق والتساؤل عن هذه القصة الغريبة، مدّعيا أنّ هذه الأخيرة مختلقة من خيالات هادي الهتاك بائع الأدوات المستعملة.

فحين يتعرض جسد الشّسمه إلى التشوّه والتحلّل إثر طلقات الرصاص بعد كلّ عملية انتقام لضحاياه، نجده مستمرا في مقاومة الموت للقضاء على المرتزقة وتجار الأسلحة. فهو بحاجة إلى جثث أخرى لينهض من جديد، بمساعدة عدد من الشخصيات، أمثال :العدّو والساحر والسفسطائي والمجنون الصغير والكبير والأكبر، فكل هؤلاء وقفوا إلى جانبه باعتباره المواطن الأول الذي يحمل هويّة العراق بكلّ خلفياته الاجتماعية المختلفة: "أخرج المجانين الثلاثة الكثير من الرصاص من جسدي، وأسهم الساحر والسفسطائي بمحاولة خياطة الأجزاء الممزقة، لكن قطعة ما من لحم الكتف رفضت أن تستقر في مكانها، كانت ذائبة تماما وكأنها من لحم جثة قديمة مضى على هلاكها عدّة أيّام." [17]

يصوّر لنا الكاتب حالة الشّسمه برائحة جسده العفنة بعد تساقط أجزاء منه، فهو أضحى ضعيفا يصارع الموت، فاقدا القدرة على التحرّك، فقد وقع تحت شعور الانزواء والاحتضار والانهيار الجسدي والنفسي. فالعائق الجسدي هو الذي يمنعه من استكمال مشروعه القتالي، على الرّغم من أنّه شديد التفكير في القضاء على المرتزقة من ضباط وقياديين "فرشت الملاءة على الأرض ونمت عاريا على السطح أمام الشمس. كانت السوائل اللزجة ذات اللون الفاتح تنزل ببطء من فتحات جسدي ومن شقوق الجروح التي تفتقت خيوطها. كنت بحاجة إلى إعادة صيانة."[18]

يذهب أتباع الشّسمه بجلب بعض الجثث الهامدة الساقطة نتيجة اشتباكات بين مجموعتين متناحرتين، حيث قاموا بنزع الأعضاء التالفة وتعويضها بقطع أخرى من جثة القتيل "القديس"، حتى يتابع الشسمه مهمته الرسمية ولتظهر صورة التحدّي والشجاعة عليه، مفعما بالقوّة والحيوية بعد ترميم جسده قائلا: "نهضت واقفا. شعرت بالحيوية وفيض من المشاعر الجديدة يجتاحني وكأنّي استيقظت من حلم ثقيل."[19]

و من هنا، بدأت نزعة الإجرام تطغى على سلوك الشّسمه بعد كلّ عملية ثأر لضحايا جدد، وأصبح بحاجة إلى جثث إضافية، فهو لم يعد يفرّق إن كانت قطع الضحايا المرمّمة لجسده مجرمة أو ضحيّة. يقول :"كانت لدي شكوك قوية أنّ عملية الترميم الأخيرة قد استخدمت فيها لحوم قادمة من جسد مجرم، لقد استعملوا، دون أن يعرفوا ربما أجزاء من جسد أحد الإرهابيين. لذا أبدو في مزاج غير حسن، وأشعر بشيء من التشويش والارتباك."[20]

لقد سبّبت له هذه الأجزاء المرمّمة الجديدة صراعا داخليا، ليتبيّن أنّه بين قوتين، قوّة الشر وقوّة الخير، فتحوّله من مخلّص عادل إلى جلاّد متهوّر، يقتل الشّعب بصورة عبثية، ويتصرّف بدوافع غريزية فنجده " مضطر إلى الاستسلام إلى بعض الشحنات

النفسية الأخرى الصادرة عن الهو نحو بعض الموضوعات، كما أنّه مضطر إلى الاشتراك فيها."[21] واستحسان ذلك، والتماهي فيها، لتتغلب عليه سلطة الشّر والعنف.

وتبدو جليّا تصرفات الشّسمه الغريبة، عند مهاجمته الأبرياء الفارين من الخوف إلى المجهول. ويتضّح ذلك من خلال قوله: "رفعت المسدس بيدي وصوبته باتجاه هذا العجوز البريء. إنّه بريء بكلّ تأكيد، وليس مثل أولئك الذين يحملهم المجانين الثلاثة من أجل صيانة وترميم جسدي."[22]

وتبعا لذلك، يقوم الشّسمه بعملية جديدة مستعيرا من الضحية البريئة عيونا جديدة حتى يتمكن من الرؤية الجيدة، بعد أن قلّ نظره؛ ممّا يدلّ على أنّ الشّسمه تحت ضغط نفسي حادّ ، وتحت وطأة التشتّت والانزلاق، فهناك دوافع غريزية قويّة تحرّكه وتتحكم فيه لتحوّله إلى شخصية مدمنة على "القتل وصناعة الموت"[23].

ومن هنا، نلمس صراعا بين حبّ البقاء والرغبة في التدمير أي بين غريزة البقاء(الحياة) وغريزة الموت؛ وهذه الفكرة الجوهرية هي التي أسست عليها المدرسة الفرويدية نظريتها، إذ نلفي فرويد يقسّم هذه الغرائز التي تمثل بؤرة التوتر إلى قسمين اثنين "غرائز الحياةinstencts lifeالتي تسهم في بقاء الفرد والأنواع، وغرائز الموت death instenctsالتي تتضمن قوة تدمير الذات، وقد تتحوّل خارجيا نحو الآخرين و تحدث العدوان و الحرب"[24]، كما تعتبر هذه الغرائز" بمثابة القوى الدافعة للشخصية فهي لا تحرك السلوك فحسب، ولكنّها تحدّد أيضا الاتجاه الذي يأخذ السلوك. بعبارة أخرى تمارس الغريزة الضبط الاختياري للسلوك."[25]وتدفعه إليه لترسم مساره.

إن هذه الشخصية المتناقضة التي استحسنت التفاعل مع الانتقام وأدمنت هذا السلوك، تقع فريسة التوحّش والتمرّد، لتصبح أكثر شراهة للعدوانية، واستشعارا بمتعة ذلك، حيث يخضع عالم اللاوعي لديها لمبدأ اللذة ،الذي" يعتمد على الإشباع، ولا يريد أن

يكون هناك عائق بين الطلب وإشباع هذا الطلب."[26] فما حلّ لشّسمه لا يمكن ترويضه والسيطرة عليه، كونه تعوّد على الجريمة وإلحاق الضرر بالآخرين.

إنّ هذا التحوّل الذي نشهده في سلوك الشّسمه كان نتيجة اقتران عدد كبير من أعضاء المجرمين وائتلافهم في جسد واحد، إذ سرعان ما أبدى استجابته لنوازع الإجرام بعد ما كان عكس ذلك. ويمكن تفسير ذلك بعدم التوازن بين الخير والشر بداخله، وأيضا في "عدم التوازن في قوى الشخصية الثلاث، والذي يتضح في أنّ الأنا والأنا الأعلى ليستا بالقوى الكافية للتحكّم في عدوان الهوّ وغرائزه الضاربة"[27].ممّا أسهم في تغيير مسار الشخصية من النضال والثأر لضحايا الانفجارات إلى تبني فكرة حب البقاء وإزهاق المزيد من الأرواح حتى يقتات منهم.

إن هذه التركيبة النفسية غير السويّة، هي التي صعّدت عدوانية الشخصية ،لتصبح من قطّاع الطرق متجهة نحو الصعلكة، فتقضي على المنجم الأكبر: "قال المجرم الذي لا اسم له ذلك، وتقدم من المنجم العجوز بسرعة وأمسك به من يديه. عصرهما بشدّة فشعر المنجّم بأنّ قواه تخور، و أنّه غير قادر على الاستمرار بالوقوف."[28]

لتكوّن النهاية أكثر بؤسا بعد الانفجار المروّع الذي حدث في حيّ البتاويين، وأسفر عن سقوط ضحايا وهدم عدد من البيوت العتيقة، حيث كان هادي العتاك أحد هؤلاء الضحايا، يصارع بين الحياة والموت في المستشفى، وآخر ضحيّة على يد الشسمه يخطف روحه، ليلصق كلّ التّهم بصانعه: "إنّه المجرم هادي حسّاني عيدروس، من سكنة حي البتاويين في بغداد، والملقّب ب"هادي العتاك.""[29] وهكذا يتحوّل صانع الشّسمه بائع الأدوات المستعملة من صانع الأمل لردّ الاعتبار للضحايا وأهاليهم إلى صورة جلاّد قاهر للذات الإنسانية، ومخرب للذات العراقية، لينقلب الشّسمه على صانعه ويلّف الحبل حول رقبته متهما إياه بالإجرام والقتل.

بنيت الرواية أساسا على أصوات متعددة (صوت البطل وأصوات الضحايا)، حيث جاءت متناوبة بين كل صوت من أصوات الشخصيات الحاضرة في جسد "الشسمه"، وهذا التناوب بين الشخصيات يظهر لنا عبر الحوار؛ الذي يحمل الدور الأكبر في التعبير داخل عالم الرواية، وليبرز الرؤية ومواقف الشخصيات إزاء الوطن والهويّة. إذ أنّ تعدد الأصوات عند باختين " ليس تعددا للأصوات جوفاء كما عند البنيويين والشكلانيين ،بل هو تعدد للأصوات المشحونة بإيديولوجيات مختلفة، ومنطق باختين في ذلك أن الرواية في حاجة إلى قائلين يحملون إليها خطاباتهم الإيديولوجية الخاصة، فقول المتكلم يمكن أن يشتمل على أصوات مختلفة"[30]. لابدّ أن تكون حاملة لإزدواجيات مختلفة تختلف من شخصية إلى أخرى تتصارع فيما بينها فكريا و إيديولوجيا، والتي تكشف بحرية عن وجهة نظرها ومواقفها وآرائها.

خاتمة:

لقد استلهم الكاتب أحمد السعداوي شخصية فرانكشتاين من نص الكاتبة العالمية ماري شيلي، وأسقطه على عمله الروائي، ليصوّر لنا حال العراق غير المستقرة و الاستدمار المفجع بعد الاحتلال الأمريكي، وما تعيشه من ظروف سياسية واجتماعية وإنسانية ونفسية صعبة، مصطنعا شخصية غرائبية محمّلة بأشلاء الضحايا، باحثة عن الثأر والعنف. ومتحولة إلى طاغية همّها التدمير والبقاء على قيد الحياة. ومن هنا يريد الكاتب تقديم خطاب رمزي من خلال عمله السردي المختلف وكأنه يلمح بأنّنا نحن من نصنع الطغاة، ونجاريهم إلى أن يصلوا إلى وحوش مدمّرة، ومن النتائج التي توصلنا إليها هي:

- رواية فرانكشتاين في بغداد تعالج الأحداث التي عاشها الشعب العراقي من تفكك للعلاقات الاجتماعية في ظل الحروب الطائفية.

يبرز الروائي السعداوي من خلال شخصية" الشسمه" صوت الحق والأمل للعراق مستقبلا من خلال مقاومته للظلم والاحتلال الأمريكي.

-تضم الرواية العديد من الشخصيات والأصوات التي تتصارع فيما بينها فكريا وإيديولوجيا.

- تتميز شخصية الشسمه بالاندفاع والقوة والعزم على التغيير جرّاء الوضع السياسي والطائفي.

-تعدّدت الشخصيات في المسخ المتمثّل في الشسمه مع تعدّد قوى الشّر والخير.

يقدم الروائي السعداوي شخصية فرانكشتاين على أنه صورة للعراق الممزقة والموجعة من كلّ الجوانب الاجتماعية والسياسية والإيديولوجية والثقافية والاقتصادية وحتى على مستوى الإنساني .

---

[1]) حسن المودن، (2009)،الرواية والتحليل النصي منشورات الاختلاف الطبعة الأولى ص24

[2])حبيب مونسي ،(2002)، فلسفة القراءة وإشكاليات المعنى ذار الغرب للنشر والتوزيع وهران ص 159

[3])علي عوض الله كرا (1995)،(الأسماء ودلالتها)مجلة الطريق عدد السادس نوفمبر/ديسمبر ص 165

[4])أحمد السعداوي،(2014)،فرانكشتاين في بغداد ،منشورات الجمل، الطبعة التاسعة، ص 27ترجم إلى عدة لغات منها الإنكليزية والفرنسية والإسبانية والإيطالية

[5])الرواية، ص 28

[6])الرواية،ص34

[7])الرواية ص 63

[8])الرواية ص 81

[9])الرواية ص 146

[10])الرواية ص 145

[11])بيار بيبر،(2009)، الرواية البوليسية والتحليل النفسي من قتل روجر أكرويد، ت حسن المودن مجلة فصول المجلد العدد 74خريف مصر ص 105

[12])الرواية ص 146

[13] الرواية ص 157

[14])الرواية ص 156

[15])الرواية ص 157

[16])الرواية ص 157

[17])الرواية ص162

[18])الرواية ص 164

[19])الرواية ص 167

[20])الرواية ص 172

[21]) سيغموند فرويد ،(1982)،الأنا والهو، إشراف محمد عثمان نجاتي دار الشروق الطبعة الرابعة ص75

[22])الرواية ص 177

[23]) بيار بيبر، (2009)،الرواية والتحليل النفسي ، ت حسن المودن،مجلة فصول عدد 76خريف ،ص117

[24])ريتشاردزلازروس،(1999)، الشخصية، ترجمة محمد غنيم، مراجعةمحمد عثمان نجاتي ديوان المطبوعات الجامعية ص105

[25])محمد السيد عبد الرحمن ،(1998)، نظرية الشخصية، دار قباء القاهرة ص39

[26])عدنان حب الله،(2004)، التحليل النفسي للرجولة والأنوثة من فرويد إلى لاكان أشراف المركز العربي للأبحاث النفسية والتحليلية الفارابي الطبعة الأولى ص 78

[27])محمد شحاتة ربيع ومجموعة من الباحثين، علم النفس الجنائي، دار غريب للطباعة، ص 113

[28]) الرواية ص 321

[29])الرواية ص 347

[30])لقاضي محمد وآخرون، (2010)،معجم السر ديات، دارمحمدعلى للنثر والمعلومات، تونس، ط1،ص101

قائمة المراجع:

- أحمد السعداوي،(2014)، فرانكشتاين في بغداد ،منشورات الجمل، الطبعة التاسعة.
- الشيخ كامل محمد محمد عويضه ،(1996)،علم النفس الشخصية، دار الكتب العلمية، بيروت ،الطبعة الأولى.
- القاضي محمد وآخرون:(2010)،معجم السر ديات، دارمحمدعلى للنثر والمعلومات، تونس.
- جان بيلمان نويل،(1997)،التحليل النفسي والأدب تر: حسن المودن ،المجلس الأعلى للثقافة.
- حسن المودن،(2009)، الرواية والتحليل النصي منشورات الاختلاف الطبعة الأولى .
- حبيب مونسي ،فلسفة القراءة وإشكاليات المعنى ذار الغرب للنشر والتوزيع وهران.
- ريتشاردزلازروس، (1999)، الشخصية، ترجمة محمد غنيم، مراجعةمحمد عثمان نجاتي ديوان المطبوعات الجامعية .
- عدنان حب الله،(2004)،التحليل النفسي للرجولة والأنوثة من فرويد إلى لاكان أشراف المركز العربي للابحاث النفسية والتحليلية الفارابي الطبعة الأولى .

- سيغموند فرويد ،(1982)،الأنا والهو، إشراف محمد عثمان نجاتي دار الشروق الطبعة الرابعة .
- طلعت منصور ومجموعة من الباحثين،(2003)، أسس علم النفس العام ،مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
- مصطفى سويف، الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، دار المعارف، الطبعة الرابعة
- حمد شحاتة ربيع ومجموعة من الباحثين، علم النفس الجنائي، دار غريب للطباعة.
- محمد السيد عبد الرحمن ،(1998)،نظرية الشخصية، دار قباء القاهرة .

المجلات :

- بيار بيبر، (2009)،الرواية البوليسية والتحليل النفسي من قتل روجر أكرويد، ت حسن المودن مجلة فصول المجلد العدد 74خريف مصر.
- خضر عادل كمال، (2001)، مفهوم الرمزية في التحليل النفسي ،مجلة علم النفس، المجلد س15العدد 59سبتمبر.
- علي عوض الله كرا (1995)، (الأسماء ودلالتها)مجلة الطريق عدد السادس نوفمبر/ديسمبر.